

□ سلام يتنفس عنه الأقباحُ بإزهار أو قليلٍ ليقو هو جيتبسم عن غلبه لطلب لبح ونوصيلوا التورقن الجلبه مطن ويربها الترواح والين بالواكب والأخك لظها فلين طليظا والاروضيون ، وتحيات

□ وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صواديق الوجود، لنا صواعق الروعود لنا تخلف ولنا تميم، [3] وسحائب من المرحمات تنهل سواكبها،
□ وكتائب من المبشرات تزجي مواكبها، وسواض من العبرات تنحل عزالمها، ولواض من المزفرات تسابق أو آخرها أو الميها على المحدث الذي المت

□ وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت تحت ظلال رعايته وتعدهه عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلمه ومواعظه

□ مشاهد كان يراوحها للخير والمنفع، واركنت قفاقهلا مستودوهه ناعلم، ووالله لبح كفا حلاي ن جربا أهل قلي سلم ووراهمي طليلين اطيوا الأجمتان، والبولشني قُطبل

□ وسلام على شيخه الذي غنّى وربّي، وأجاب داعي العلم فيه ولبّي، وأثر في توجيهه خير الإسلام، فقلد الإسلام منه صارماً عضباً، وفجّر منه للمس

□ وسلام على إخوان كانوا زينة نادية، وبشاشة واديه، وكانوا عمّار سامره، والمطيب المتضوع [6] من مجامره، والجوارح الماضية في تنفيذ أوامره

□ وسلام على أعوان كانوا معه بناة المصحح، وحمالة المصحح، وكانوا سيوف الحق التي بها يصول، وألسنة الصدق التي بها يقول.

□ أبت لهم عزة الإسلام أن يضّرعوا أو يذلّوا، وأبت لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلّوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله

□ ولقد أقول على عادة الشعراء -وما أنا بشاعر- لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخبال، تُمثّلهما الخواطر تمثيل صفاء، وتقييمهما في ذهن

□ سيراً - على اسم الله - في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسرة وضّاح، وتخلّ لنا الأحياء؛ فستجدان لاسم من تَنّت جعانه ذكراً ذائعاً في الأفوا

[13].

□ سيراً -روحي فداؤكما من رضيعي همة، وسليبي منجبة من هذه الأمة - حتى تدفعا في مسيّ خامسٍ، له يوم المترحل خامس، [14] إلى الدوادي الذي ط

وأتيا العُدوة الدنيا فثم المنتجع والمراد، وثم المطلب والمراد، وثم محلة الصدق التي لا يصدر عنها الوراد، وثم مناخ المطايا على حُلال الحق

ما استقلّت بالمسميع الواهي ما للمقابر لنا تَجيب المداعي

وخصّ القبر الذي تضمّن الواهي المسميع، والواحد الذي بدأ الجميع، فقولاً له عني:

يا قبر، عزّ على دفينك الصبر، وتعاصى كسر القلوب الحزينة على من فيك أن يُقابَل بالجبر، ورجع الجدال إلى الاعتدال بين القائلين بالاختيار والقائلين بالجبر.

يا قبر، ما أقدر الله أن يطوي عَمّاً ملأ الدنيا في شبر!

يا قبر، ما عهدنا قبلك رمساً، وارى شمساً، ولما مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلماً دائراً، وتحبس كوكباً سائراً.

يا قبر، قد فصل بيننا وبينك خط التواء لا خط استواء، فالقريب منك والبعيد على السواء.

يا قبر، أتدري من حويته؟ وعلى أي الجواهر احتويته؟ إنك احتويت على أمة، في رمّة، وعلى عالم في واحد.

يا قبر، أيدي من خطك، وقارب شطك، أي بحر ستضُم حافتك؟ وأي معدن ستزن كفتاك؟ وأي ضرغامة غاب ستحتبل كفتاك؟ وأي شيخٍ كشيخك؟ وأي فتى كفتاك؟ فويح الحاضرين ماذا أودعوا فيك حين أودعوا؟ وويح المشيعين ماذا شيعوا إليك يوم شيّعوا؟ ومن ذا ودعوا منك إذ ودعوا؟ إنهم لا يدرون أنهم أودعوا بناء أجيال في حضرة، وودعوا عامر أعمال بقفرة، وشيعوا خدن أسفارٍ، وطلّعة استنصارٍ إلى آخر سفرة.

يا قبر، لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب، تهمي على تربتك المزكية وتصوب، ولما نحذو في الدعاء لك حذو المشريف المرضي، فنستعير للنبت جنباً ترضعه المراضع، من السحب الهوامع، تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء، فنبدتهم بالمعراء، وزاغوا بها عن أدب الإسلام ومنهاجه،

وراغوا عن طينته ومزاجه، بل تلك بقية من بقايا الجهل، ما أنت ولما صاحبك لها بأهل.

﴿قولما لصاحب المقبر عني: يا ساكنَ المَضرِيحِ ، نجوى نِضْوَ طليحِ ، صادرةً عن جفنِ قريحِ ، وخافقِ بين المِضْلُوعِ جريحِ ، يَتَّأوِبُهُ في كل لحظة خيالُك وذَكَراكِ ، فيحملانِ إليهِ على أجنحة الخيالِ من مسراكِ الملهبِ والريحِ ، وتؤدِّي عنهما شؤونه المنسربة ، وشجونه الملتهبة ، وعليهما شهادة التجريحِ .

﴿إن من تركت وراءك ، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك؟ وهيهات ، ما عانِ كمستريح!

﴿يا ساكنِ المَضرِيحِ ، أأكني؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح ؟ إن بُعدك أتعب من بُعدك .

لقد كانوا يلوذون من حياتك الحية بكنف حماية ؛ ويستندرون من كفاءتك للمهمات بحصن كفاية ، ويستدفعون العظام منك بعظيم ؛ وایم الله لقد تَلَفَّتْ بعدك الأعناق ، وأشرأت ، وماجت الجموع والتأبَّت ، تبحث عن إمام لصفوف الأمة ، يملأ الفراغ ويسد الثلمة ، فما عادت إلما بالخيبة ، وصِفِر العيبة [16].

﴿يا ساكنَ المَضرِيحِ ؛ مَتَّ فمات اللسان القوَال ، والعزم الصوَال ، والفكر الجوَال ، ومات الشخص الذي كان يصطرح حوله النقد ، ويتطأير عليه شرر المحقد ؛ ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعق به البرد ، وتتجلى به القوافي الشُرْد ، ولما الذكر الذي كانت تطنطن به الأبناء ، وتتجاوب به الأصدااء ، ولما الجلال الذي كانت تعنو له الرقاب ، وتنخفض لمجلاه العقاب ، ولما الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان ، ولما يببب منه إلما الحق في أمان .

﴿مات الرسم ، وبقي الاسم ، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم .

﴿وهزأ فيك لأمة أردت رشادها ، وأصلحت فسادها ، ونفقت كسادها ، وقومت منآدها ، وملكت بالاستحقاق قيادها ، وأحسنت تهيئتها للخير وإعدادها ، وحملتها على المنهج الواضح ، والعَلَمِ اللائح ، حتى أبلغتها سدادها ، وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق ، ومثلت من بنى العقائد وشادها ؛ أعلت اسمها بالعلم والتعليم ، وصيرت ذكرها محل تكريم وتعظيم ، وأشربت معاني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضيلة فكانت لها نعم الدراحم وكنت بها البر الرحيم .

﴿ولقد حييتَ فما كانت لفضلك جاحدة ، ومَتَّ فما خَيَّبَتْ من آمالك إلما واحدة [17].

﴿وهنيئاً لك ذخرِك عند الله مما قدّمت يداك من باقيات صالحات ، وهزأاً لك فيمن كنت تستكفيهم ، وتضعُ ثقتك الغالية فيهم ، من إخوانك العلماء العاملين ، الصالحين المصلحين .

فهم - كعهدك بهم - رُعاة لعهد الله في دينه، وفي كتابه، وفي سنة نبيه، دعاة إلى الحق بين عباده، يلقون في سبيله المقذى كحنا، والماذي من العسل أحلى.

وسلام عليك في الأوّلين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في العلماء العاملين، وسلام عليك في الحكماء الربانيين، وسلام عليك إلى يوم الدين.

أفلو[18]، 22 ربيع أول 1360 هـ / 9 أفريل 1941.

15/11/1426هـ

□

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 2/53-58. * هذه المقالة كتبها الإبراهيمي في رثاء زميله ورفيق دربه الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- وقد لا يستغني القارئ الكريم عن اصطحاب أحد المعاجم إذا أراد قراءة هذه المقامة؛ لما فيها من كثرة الغريب، وإحكام التركيب، كما لا يستغني عن الإلمام بأهمات الكتب في الأدب، والدواوين الشعرية، والتواريخ، والعقائد؛ لما في تلك المقامة من كثرة التضمين، والمبدع، ونحو ذلك من الألوان البلاغية، والإشارات التاريخية وما جرى مجرى ذلك. ولو شُرحت ألفاظ تلك المقامة، وعُزيت إشاراتها - لبلغت صفحات عديدة.

وقد قدم لهذه المقامة تلميذ البشير الأستاذ محمد الغسيري؛ فالملك شيئاً من مقدمة الغسيري، ثم مقامة البشير:

يقول الغسيري:

المؤاض قليل في البشر، وأوضى الأوضياء من يضي للأموات؛ لأن النسيان غالباً ما يباعد بين الأحياء وبينهم، فيغمطون حقوقهم، ويجحدون فضائلهم.

من أعلى ما امتاز به أستاذنا الجليل، ورئيسنا الأكبر، محمد البشير الإبراهيمي من شرف الخلال (نكران الذات) فهو لا يزال يعمل الأعمال التي تعجز عنها الجماعات وتتوؤ بها العُصَب، وهو مع ذلك لا ينسب الفضل إلا لإخوانه ورفقائه الأموات والأحياء.

يصرح بذلك في خطبه الدينية، ومحاضراته الجامعة، ويقول: إن كل فضل في هذه الحركة العلمية النامية يرجع إلى جمعية العلماء، وإنه لو لم تكن جمعية العلماء لما كان هو.

ونحن -أبناءه- نشهد، وإخوانه يشهدون أنه لو لم علمه، ولسانه، وصبره وتأثيره الذي يشبه السحر - لما كانت جمعية العلماء، ولولا براعته في التصريف والتسيير لما سار لجمعية العلماء شرع في هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن.

مات ابن باديس، في حين كان رفيقه في الجهاد وقسيمه في العلم والعمل محمد المبشير الإبراهيمي منفيًا في قرية (أفلو) من الجنوب الموهرائي، بحيث لم يحضر دفنه، ولم يؤبَّنه بكلمة، فعوض ذلك برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بث فيها حزنه للمصيبة، وصور فيها آثارها، ولم تنسه الفجاعة ما يجب من النصائح بالثبات، واستمرار السير، فجاءت رسائل من ذلك الطراز الساحر الذي لا يحسنه إلا الإبراهيمي، ولا أدري أ يحتفظ إخواني بتلك الرسائل الفنية أم ضيَّعوها؟!؛

ولما مضت على موت الأستاذ سنة، ورفيقه لا يزال في المنفى، أرسل الرئيس الجليل من منفاه هذه المقامة: فأبكت العيون، وجددت الأسي.

رغبنا إلى أستاذنا أن ننشر هذه المقامة فأذن -أبقاه الله- بعد امتناعه؛ لأن أستاذنا -حفظه الله- لا يرى المسجع معبراً عن النوازع العميقة، وإن كان هو إمام العصر بلا منازع في هذه الطريقة الأندلسية البديعة التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصنعة، وملك أزمة اللغة والغريب...

وحلَّت في الأخير رغبتنا منه محل القبول، حرصاً على هذه المقامة أن تضيع إن لم تسجل، وكم نفانس مثل هذه المقامة، وكم من رسائل، وكم من تحف فنية من أدب المهزل والنكتة، وكم من ملاحم شعرية، بلغت الآلاف من الأبيات! ما زالت مطمورة في أوراق الأستاذ، وفي حافظته العجيبة.

وإذا لم يحرص أمثالنا من تلامذة الأستاذ على استخراجها ونشرها ضاعت، وخسر الأدب والعلم خسارة لا تعوض، وهاهي ذي المقامة المباديسية، وننبه إلى أن الأستاذ حذف منها كثيراً مما لا تسمح الظروف بنشره.

وما رأينا في حياتنا رفيقين جمع بينهما العلم والعمل في الحياة، وجمع بينهما الوفاء حين استأثر الموت بأحدهما -مثلما رأينا إمامي النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، ومحمد المبشير الإبراهيمي، رحم الله المميت، وأمد في عمر المحي حتى يحقق للجزائر أمنيته.

تلمسان

محمد الغسيري

[3] لا تمين: المين هو الكذب.

[4] الغزر: الكثيرة.

[5] المغر: الأفعال الكريمة.

[6] المتضوع: المنتشر، والمنبعث.

[7] هذا تضمين لبیت بشار بن برد، يقول فيه:

[8] المطية: الحاجة والوطر. [9] المهرية القود: هي الفرس الطويلة الظهر والعنق، والمهرية منسوبة إلى

مَرة بن حيدان بطن من قضاة، والقود الطوال، ومفردها قوداء وأقود، وهذا مضمن بيت المتنبى الذي يقول فيه:

[10] الوديقة المصيخود : الوديقة: هي حر نصف النهار، والمصيخود: الشديدة، والمعنى: ادفعا بالفرس الطويلة في عز المهاجرة والمح الشديد، والوديقة المصيخود: شدة الحر، أو المح الشديد.
 [11] لذع المهورجر: حرها الشديد.
 شهري ناجر: قيل: صفر، وقيل: رجب، وقيل: كل شهر في صميم الحر فاسمه ناجر؛ لأن المابل تَنَجُرُ فيه، أي يشتد عطشها حتى تيبس جلودها.
 (12)

[13] دارج ونائل: أولاد دارج مجموعة قبائل ترجع أصولها إلى هلال بن عاصم جد القبائل العربية التي أغارت على شمال أفريقيا.

وأولاد نائل مثلهم، ولكنهم أكثر عدداً.

وسكناهم ما بين المسيلة (المحمدية) وطنبية في مقاطعة قسنطينة.

[14] هذا تضمين لببيت أبي نواس:

[15] التفويف : من الفؤف وهو الزهر. [16] العَيْبَة: هي الموعاء الذي يوضع فيه المتاع. [17] هي المقيام بثورة جارفة تكتسح الاستعمار الفرنسي، وتنتزع بها منه حريتها واستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كنا نتناجى بها ونعمل لتصحيح أصولها، وقد حققت الأمة الجزائرية المجيدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه.

[18] آفلو: قرية نائية في جبل العمور من الجنوب الوهراني، وهذه القرية هي التي اختارتها السلطة العسكرية الفرنسية منفي لكاتب هذه الكلمات في أول الحرب العالمية الثانية ففضى فيها ثلاث سنوات.